وفئات بذاتها، ناهيك عن طبقات وفئات لذاتها، وطالما لا تزال، في تطوّرها كما في نشأتها، رهن الصراع العام، وتعبيراته السياسية ـ الاجتماعية ـ الاقليمية.

وممّا ورد آنفاً يمكننا التقاط بعض التحديدات التي أراد الكتاب ان يطرحها: تاريخ العلاقات الاردنية ـ الفلسطينية؛ وحاضر هذه العلاقات؛ والسياق الاجتماعي ـ السياسي ـ التاريخي لارتباط ماضي هذه العلاقات بحاضرها.

وقد عرض محادين لمجموعة من مشاريع التقسيم، التي منحت الاردن مكانة خاصة في الصراع العربي ـ الصهيوني. واعتبر مشروع ستيوارت ـ ارسكين (١٩٣٥) أساساً لمشاريع أخرى، بدءاً من «مشروع بيل» (١٩٣٦)، وصولاً الى «مؤتمر عمّان» (١٩٤٨) الذي أعلن انه «يعلّق على صاحب الجلالة الملك عبدالله المعظم أكبر الآمال في حفظ حقوق عرب فلسطين، وصيانة عروبتها، ويفاوض عنهم، ويعالج مشكلتهم بالشكل الذي يراه، وهو الوكيل عنهم في جميع شؤون مستقبل فلسطين. كما ان المؤتمر يؤيد جلالته في كل خطوة يخطوها، في سبيل حل قضية فلسطين، ويعتبره المرجع الوحيد للعرب الفلسطينيين».

وواقع الحال، ان ما جاء في قراءة محادين لهذه المرحلة بدا سرداً تاريخياً عجولاً؛ ولكنه سرد يستثير شهوة الحوار، والاسئلة، على الاقل عبر اغفاله للرؤية الصهيونية لشرق الاردن. أول الاسئلة: ما الذي يدفع بالمشروع الصهيوني، وهو المشروع الذي يمضغ ثلاثة آلاف عام من التاريخ، لتفويض النظام الاردني بقطعة من حلمه الكبير؟ عن هذا أجاب الزعيم الصهيوني زئيف جابوتينسكي: «بعد سنين، بعد قرون، ربما سنعود الى اسرائيل». واسرائيل، «الوطن القومي اليهودي»، كما يراها حزب حيروت، هي التي تشمل ضفتي نهر الاردن، وتشكل «وحدة تاريخية وجغرافية شاملة». وحيروت «يدين تقسيم الوطن، وان أية موافقة على التقسيم لا تعتبر مشروعة أو ملزمة للشعب اليهودي؛ ومن واجب هذا الجيل ان يعيد الاجزاء المقتطعة من الوطن الى حياض السيادة اليهودية».

ما هي حياض السيادة اليهودية؟ كان جابوتينسكي واضحاً في تحديده لها، فرأى «ان حصر ' الوطن القومي ' في فلسطين هو عبارة عن صهيونية صغيرة؛ امّا الصهيونية الكبيرة، فتهدف الى اقامة دولة يهودية في أرض ـ اسرائيل التاريخية، وعلى ضفتي الاردن، فلسطين وشرق الاردن، وذلك بعد ان يصبح اليهودي في تلك المناطق». وجابوتينسكي هو صاحب بيت الشعر: «ضفتان للاردن. هذه لنا، وهذه لنا». وما زال شعره يشكّل «برنامجاً» من اجل «دولة اسرائيل». وعندما نقرأ ما كتبه جابوتينسكي، فاننا نقرأ عناوين راهن الحال، من خلال افرازات التداخل ما بين الوضع الاردني والوضع الفلسطيني، لنمر بتجارب ومؤشرات كثيرة، من بينها مؤشرات طرحها محادين، كـ «مؤتمر اريحا»، وولادة منظمة التحرير الفلسطينية، واجهاض العمل الوطني الفلسطيني في الاردن بعد أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، واحداث عجلون، ومجموعة الصيغ السياسية التي تجعل للاردن وضعاً مميّزاً في «حل» أو «لا حل» للقضية الفلسطينية، وصولاً الى قرار فك الارتباط. واذا كانت العودة الى تاريخ العلاقات الاردنية ـ الفلسطينية تستدعي قراءة تاريخ العلاقة الرسمية الاردنية بالقضية الفلسطينية، فهي تستدعي، أيضاً، النظر اليها من جانب المشروع الصهيوني، وهي التي أغفلها محادين، مع ان أساس أي رؤية لا يستقيم الّا بقراءتها. فشرق الاردن، في المشروع الصهيوني، هو «الجزء الشرقي من ' ارض الميعاد ' ، فصل عن الجزء الغربي بصورة مصطنعة بعد ' مؤتمر القاهرة ' ١٩٢١». هذا ما يراه الياهو ايلات؛ ويرى، أيضاً، انه «جزء لا يتجزأ من ارض ـ اسرائيل كلها؛ وان الماضي التاريخي يربط بين الجزأين». وكان ايلات أعلن عن أسفه على الاستيطان الصهيوني الذي بدأ من الغرب الى الشرق، وأكد ان «تلك العملية التي جرت قديماً من الشرق الى الغرب، ستتم، في أيامنا، من الغرب الى الشرق؛ وان اليهود الذين احتلوا أرض يهودا من طريق قواب، سيضطرون الى احتلال قواب من طريق يهودا، وانه بدلاً من السيوف التي احتل بها موسى ويهوشع البلاد، ستكون أسلحة المحتلين الجدد الفأس والمقص». و«أرضنا في شرق الاردن هي خارج الحدود الآن، ولكن من يعرف ما الذي سيحصل في المستقبل؟» ويتفاءل بالمستقبل، مؤكداً ان «أملنا، الذي استمر ألفي سنة، يتحقق أمام أعيننا. وبمرور الوقت، ان أرض شرق الاردن ستعود، وتصبح ملكاً لنا، كما كان في الايام الغابرة».